الفصل الأول

عصر أبي حيان التوحيدي

١ ـ الحركة السياسية

انحطت الدولة العباسية فى أواخر القرن الثالث للهجرة ، وانقسمت إلى دُويلات صغيرة آل أمرها إلى جماعات من متغلبى الأعاجم كالأتراك والفرس والديلم ، فجرد الخليفة العباسى من كل سلطة فعلية ، وأصبحت المملكة الإسلامية ميداناً للأهوال والمآسى .

والقرن الرابع الذى عاش فيه أبوحيّان التوحيدى أو الذى عاشه أبو حيان التوحيدى من سنة ٣١٠ هـ إلى سنة ٤١٤ هـ كان أعجوبة الأعاجيب فى انقسام الملك وانتشار الفوضى وذيوع الفتنة والاضطراب والعبث بسلطان الخلفاء والتحكم فى مصايرهم على ما يحلو للمهيمن المتسلط من الولاة والحكام .

خضع العراق وجنوبى فارس لسلطان بنى بُوَيْه [1] زهاء قرن ونيف فقد استقر سلطانهم فى تلك الرقعة واستولوا على الخلافة وعزلوا الخلفاء وولوهم ورفعوا

---

(١) كان بنو بويه يقطنون فى الجنوب الغربى من شاطئ بحر الخزر ، وأول أمرهم أن بويه الفارسى كان له ثلاثة أولاد وهم : على الذى لقب فيما بعد « بعماد الدولة » وحسن « ركن الدولة » وأحمد «معز الدولة » فدخل هؤلاء فى الجندية واتصل عماد الدولة بخدمة الأمير مرداويج مؤسس الدولة الزيارية (دولة فارسية قامت بجرجان من سنة ٣١٦ هـ إلى ٤٣٤ هـ) . فارتقى عنده حتى ولاه مقاطعة جورجيا « الكرج » ثم كتب إلى الخليفة العباسى الراضى بالله المتوفى سنة ٣٢٩ هـ ليقطعه أعمال فارس على مال معين يحمله إلى دار الخلافة فأجيب إلى ذلك ثم توسل لأخيه ركن الدولة بمقاطعة خوارزم ، ولأخيه معز الدولة بمقاطعة شيراز ، ثم اتفق الإخوة الثلاثة فزحفوا على بغداد واستبدوا بالخلافة سنة ٣٢٢ هـ ودام ملكهم مدة ١٢٦ سنة ، وزال على يد السلاجقة سنة ٤٤٨ هـ ، وكان بنو بويه يسيطرون على أربعة أقاليم : إقليم الأهواز ، وإقليم الجبال ، وإقليم فارس ، وإقليم العراق ، وكان لدولتهم ثلاث عواصم . الرى وشيراز وبغداد .

منار الشيعة[١] وأحيوا معالمها وأضعفوا نفوذ الأتراك والخلافة العباسية لا تزال فى بغداد ، ولما أفضت إمارة الأمراء إلى عضد الدولة لقب بالملك وهو أول من خوطب بهذا اللقب فى الإسلام[٢] .

« وكان السلطان فى ذلك الوقت ببلاد الأندلس لبنى أمية والقائم بالأمر منهم عبد الرحمن الناصر وقد تلقب بأمير المؤمنين حينما وصلت خلافة بغداد إلى ما وصلت إليه من الضعف أمام الأتراك والديالمة الذين سال سيلهم ببغداد .

وببلاد إفريقية للعبيديين الذين تأسست دولتهم على أنقاض الأغالبة والأدارسة والقائم بالأمر منهم إسماعيل المنصور وهو ثانى خلفائهم وكان يلقب بأمير المؤمنين .

وبمصر والشام للإخشيديين والأمير منهم أنوجور بن محمد الإخشيد وكانوا يخطبون باسم الخليفة العباسى .

وبحلب والثغور لسيف الدولة على بن عبد الله بن حمدان الشيبانى ويخطب باسم الخليفة العباسى .

وبالجزيرة الفراتية لناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان الشيبانى ويخطب باسم الخليفة العباسى .

وبالعراق للديلم والسلطان منهم معز الدولة أحمد بن بويه ويخطب على منابره باسم الخليفة العباسى ثم باسم معز الدولة من بعده .

وبعمان والبحرين واليمامة وبادية البصرة للقرامطة ويخطبون باسم المهدى .

وبفارس والأهواز لعلى بن بويه الملقب عماد الدولة ويخطب باسم الخليفة العباسى وكان يلقب بأمير الأمراء لأنه أكبر بنى بويه .

---

(١) إن الظروف والحوادث الدامية التى كانت تجرى بين السنيين والروافض زمن بنى بويه تؤيد قول التوحيدى ، ومن المعروف أن حكم البويهيين « أنصار التشيع الإيرانى » — (حكم الديلم : ١٩) — امتد من سنة ٣٢٢ إلى ٤٤٨هـ كانت تتخلله حروب دامية وفتن أهلية بين أهل السنة الذين كان يساندهم الأتراك ، والروافض الذين كان يساندهم البويهيون ويقول ابن كثير : « إن البلاد امتلأت رفضاً وسبّاً للصحابة من بنى بويه وبنى حمدان والفاطميين وكل ملوك البلاد معمراً وشاماً وعراقاً وخراسان وغير ذلك من البلاد كانوا رفضاً ، وكذلك الحجاز وغيره وغالب بلاد المغرب فكثر السب والتكفير منهم للصحابة » — « البداية والنهاية » : ١١/٢٣٣ .

(٢) « تاريخ آداب اللغة العربية » لزيدان ج ٢ .

وبالجبل والرى لحسن بن بويه الملقب ركن الدولة ويخطب باسم الخليفة العباسى .
وجرجان وطبرستان يتنازعها وشمكير بن شيرويه وركن الدولة وآل سامان .
وبخراسان وما وراء النهر لآل سامان ومقر ملكهم مدينة بخارى ويخطبون على منابرهم باسم الخليفة العباسى .

هذه هى القوى الكبرى التى كانت لأسر ملوكية فى الرقعة الإسلامية فقد تفرق هذا الملك الواسع تفرقًا غريبًا بعد أن كان متماسك الأعضاء يرجع كله إلى حاضرة كبرى تجمع شتاته »[١] .

وكان أمراء بنى بويه على ما لهم من حسنات وبيض الأيادى تختلج فى جوانحهم عوامل البغى والطغيان والقسوة والجبروت ، وينالون بها حتى أقرب المقربين إليهم فقد كان الوزير المهلبى على جلالة قدره يلحقه من فحش معز الدولة وشتمه عرضه ما لا صبر لأحد عليه فيحتمل ذلك احتمال من لا يكترث له وينصرف إلى منزله[٢] . وأدهى من ذلك أن معز الدولة قد ضربه ذات يوم بالمقارع مائة وخمسين مقرعة يراوح بينها بأن يرفع عنه الضرب حتى يوبخه ويبكته ثم يعيد عليه الضرب ولكن الوزير قبل بعد أن استقل من هذا الضرب أن يرجع إلى الوزارة[٣] .

وهذا دليل على الفوضى التى سادت فى هذا العصر وعلى طغيان بنى بويه وتهالك وزرائهم على المناصب غير عابئين بالمعاطب .

٢ ـ البيئة الثقافية

إزاء هذا الانحطاط السياسى كنت تجد رقيًا فى الحياة العقلية ، فكأن العلوم والفنون لا ترقى إلا فى عصور الفوضى والاضطراب[٤] ، فقد نتج عن تفكك الدولة العباسية أن عمد أمراء الدول الصغيرة سواء لأسباب سياسية أو بدافع حب الظهور ، أو الإبقاء على تقاليد بغداد إبان مجدها ـ إلى تشجيع العلماء ،

(١) « محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية » للخضرى .
(٢) « تجارب الأمم » ٦/١٤٦ .
(٣) « تجارب الأمم » ٦/٢٩٠ .
(٤) « ظهر الإسلام » : ٩٦ ، « تجديد ذكرى أبى العلاء » : ٤٥ .

وتقريب الفئة الممتازة من الأدباء والشعراء . والعطف عليهم ، « وبعد أن كان نصير العلم الخليفة . أو وزيره أو بعض عماله فى بلد واحد : أصبح نصراؤه فى هذا العصر عدة ملوك وأمراء ووزراء فى أشهر مدن العالم الإسلامى »[١]. فغدا كل قطر من أقطار المملكة مركزاً هامًّا من مراكز الثقافة العربية ، واستمرت الحركة العلمية التى ظهرت زمن المأمون فى سيرها المطرد . وظل العرب عاكفين على الإفادة من التراث الضخم الذى خلفته جهود العلماء والمترجمين فى العصور السابقة.

وعلى الرغم من أن بنى بويه كانوا جماعة من شيعة الفرس . ومن أن «العناصر العربية فى عهدهم كانت معرضة لغلبة التيار الفارسى »[٢] فإن أعجميتهم لم تحل دون تشجيع اللسان العربى ، فقد كان كثيرون من البويهيين ووزرائهم على جانب من الثقافة ، حتى أصبح أساس الاختيار للوزارة عندهم شيئين : «القدرة الإدارية والقدرة البلاغية »[٣] ، ومن أشهر هؤلاء الوزراء ابن العميد ، أكتب أهل زمانه ، والصاحب بن عباد ، وهو الذى جعل داره مجمعًا لطوائف الكتّاب والمنشئين والقراء والمتكلمين ، ولقد وصف التوحيدى مجلسه فقال : « وهل عند ابن عباد إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحمقون ويتصايحون»[٤] ، والوزير المهلبى الذى كان « غاية فى الأدب والمحبة لأهله »[٥] ، وبهاء الدولة أبو نصر سابور بن أردشير ، صاحب دار العلم فى بغداد ، وابن سعدان ، وزير صمصام الدولة وهو القائل يفخر بأهل مجلسه على زميليه المهلبى وابن العميد : « والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، وإنهم لأعيان أهل الفضل ، وسادة ذوى العقل ، وإذا خلا العراق منهم فرقّن على الحكمة المروية ، والأدب المتهادى ، أتظن أن جميع ندماء المهلبى يفون بواحد من هؤلاء . أو تقدر أن جميع أصحاب ابن العميد يشبهون أقل واحد منهم »[٦] .

---

(١) « تاريخ آداب اللغة العربية » : ٣/٣٢٣ .
(٢) « تاريخ الأدب العربى » لحب : ٥٤ .
(٣) « ظهر الإسلام » : ٢٥٥ .
(٤) « الصداقة والصديق » : ٣٠ .
(٥) « وفيات الأعيان » : ١/١٤٢ .
(٦) « الصداقة والصديق » : ٣٠ .

كان من جراء هذه العوامل نبوغ كثيرين من العلماء والأدباء والفلاسفة والفقهاء والمفسّرين والمحدثين وأصحاب المذاهب المتصوفة ، وأصبحت مدن كثيرة فى العراق وفارس مراكز للحركات العلمية كبغداد والبصرة والكوفة فى العراق ، والرى وأصفهان وشيراز وسيراف فى فارس ؛ على أن بغداد — على ما انتابها من ضعف وتضاؤل مركزها السياسى — ظلت العاصمة بمعنى الكلمة الحقيقى ، وآية ذلك « أن جميع الحركات الروحية فى مملكة الإسلام كانت تتلاطم أمواجها فى بغداد ، وكان فيها لجميع المذاهب أنصار »[١] .

٣ — الحالة الاجتماعية والاقتصادية

كانت الحالة الاجتماعية فى أواخر القرن الثالث شبيهة بالحالة السياسية ، فقد أعقب فقدان الاستقرار السياسى فسادٌ فى الوضعين الاجتماعى والاقتصادى وتباعدٌ فى الطبقات الشعبية ، وسوء توزيع للثروة العامة ، فعكف فريق من الرؤساء والأغنياء — كما هى الحال فى عصور الفوضى السياسية — على الترف والبذخ واللهو ، وحرم أفراد الشعب حتى المفكرون منهم القوت الضرورى ؛ وقد أورد التوحيدى أمثلة عن حالة البؤس التى انحدر إليها زملاؤه المفكرون والأدباء فقد كان أبو سليمان المنطقى السجستانى ، سيد علماء عصره « بحاجة ماسة إلى رغيف : وحوْله وقوّته قد عجزا عن أجرة مسكنه ووجبة غدائه وعشائه »[٢] ؛ وكان أبو سعيد السيرافى « عالِيم العالَم ، وشيخ الدنيا ، ومقنع أهل الأرض »[٣] على حد قول تلميذه التوحيدى « يمسخ فى اليوم عشر ورقات بعشرة دراهم ليعيش » ؛ وكان الفيلسوف يحيى بن عدى « يكتب فى اليوم والليلة مائة ورقة وأكثر »[٤] ، وكان المعافى بن زكريا النهروانى ذا « أنَسَة بسائر العلوم » شاهده تلميذه التوحيدى فى جامع الرصافة « وقد نام مستدبر الشمس فى يوم شاتٍ وبه

---

(١) « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » : ١/١١٠ .
(٢) « الإمتاع » : ١/١٣٠ .
(٣) « المقابسات » : ٢٣ .
(٤) « أخبار الحكماء » : ٣٦١ ؛ « الفهرست » : ٣٦٩ .

من أثر الفقر والبؤس أمر عظيم ، مع غزارة علمه ، واتساع أدبه ، وفضله المشهور »[١] ؛ وكان أبو بكر التومسى الفيلسوف من الضر والفاقة على جانب عظيم ، وهو القائل عن نفسه : ما ظننت أن الدنيا ونكدها تبلغ من إنسان ما بلغ منى ، إن قصدت دجلة لأغتسل منها نضب ماؤها ، وإن خرجت إلى القفار لأتيمم بالصعيد عاد صلداً أملس[٢] ! إلى غير ذلك من الأمثلة التى ذخرت بها كتب التراجم .

تأثرت الآداب والفنون بهذه الحالة الاقتصادية السيئة فتجمع الأدباء فى قصور الخلفاء والأمراء طلباً للرزق ، وكان جل همّ أحدهم الاتصال بوزير أو أمير ينسى بقربه الفاقة والعوز ، وكانت حياة الأديب تجرى فى جو تسوده الدسائس والمؤامرات والتناحر والتملق ، فتَبَعُدَ الأديب عن المثالية ، وحصرت رسالته فى الفوز بالمجد والثروة والشهرة من أقرب سبيل ، ولذا جفّ ينبوع العاطفة الصادقة ، وغلب على الأدب التكلف والمبالغة المنافية للذوق والعقل ، وتلوّن بلون التسول والتضرع والاستعطاف حتى صرنا نرى أديباً كبيراً كالتوحيدى يخاطب أبا الوفاء المهندس معتذراً بقوله : « أنا سامع مطيع ، وخادم شكور ، مثلك يعفو ويصفح ، وأنت مولى وأنا عبد ، وأنت آمر وأنا مؤتمر . . . أأنا أدعك وجداً علىّ ؟ وأرقد وأنت ماقت لى ؟ وأجد حسّ نعمة أنت وهبتها إلىّ ؟ وألذّ عيشاً أنت أذقتنى حلاوته ؟ أنسى أياديك وهى طوق رقبتى ، وتجاه عينى ، وحشو نفسى ، وراحة حلمى ، وزاد حياتى ، ومادة روحى ؟ »[٣] . أو كما كتب إلى الوزير ابن العميد مستعطياً : « أصْلِح أديمى فقد حَلَمَ ، وجدد شبابى فقد هرمَ ، وأنطقْ لسانى فى اصطناعى ، فقد شردَتْ صحائف النجح عند انتجاعى ، ورِشْ عظمى فقد براه الزمان ، واكسُ جلدى فقد عراه الحدثان »[٤] ولذلك « إذا أحصَيتَ الأدب الذى قيل فى المديح رجحت كفته على الأدب الذى قيل لباعث نفسانى »[٥] .

---

(١) « معجم الأدباء » : ١٥١/١٩ .
(٢) « معجم الأدباء » : ١٠/١٥ .
(٣، ٤) « الإمتاع » : ١١/١ .
(٥) « ظهر الإسلام » : ١٢٠ .

وشيء آخر نتج عن فساد الحياة الاقتصادية نجد صداه فى الأدب وهو أن أصحاب السلطان عمدوا إلى الاعتداء على الرعية ومصادرة الأموال سدًّا لحاجاتهم الإسرافية إلى المال ، مما دعا الناس — دفعًا للشر عن أنفسهم — إلى الظهور بمظهر الفاقة ، فمدحوا الفقر وذموا الغنى ، وسرتْ فيهم روح الكآبة ، وذم الزمان وأهله ، والشكوى من الظلم ، فقويت نزعة التصوف والتوكل فأحدثت تيارات فكرية نراها ماثلة فى أدب هذا العصر بصورة عامة ، وفى أدب التوحيدى بصورة خاصة .